في الدرس المقارن للأدب: مفاهيم ملازمة

أ.د. عبد النبي اصطيف

يلاحظ أي معنيّ بالأدب المقارن أن ثمة عدداً من المصطلحات/المفاهيم التي تلازم الحديث عن الدرس المقارن للأدب من مثل: الأدب القومي، والأدب الشفوي، والأدب الرسمي، والأدب العالمي، والأدب العام، الأمر الذي يستدعي محاولة التمييز الواضح فيما بينها حتى لا تلتبس الأمور على العاملين في هذا الحقل المعرفي المهم بل الخطير من حقول الدراسة الأدبية. ولذا فإنه ربما كان من الحكمة أن يشير المرء بداية إلى أن المصطلحات، التي يعبر بها عن هذه المفاهيم، هي:

• **مصطلحات مولّدة**، فهي لا تعدو كونها ترجمة حرفية لنظيراتها في اللغات الأجنبية المنقولة عنها:

فالأدب القومي ليس غير ترجمة للمصطلح الإنكليزي national literature، والأدب الشفوي كذلك ليس غير ترجمة للمصطلح الإنكليزي oral literature، وكذا الشأن في مصطلح الأدب العالمي الذي ترجم به العرب مصطلح world literature، ومصطلح الأدب العام الذي ترجم به العرب مصطلح general literature، وهكذا.

• **مصطلحات خلافية** في ثقافاتها الأصلية التي استمدت منها، ومعنى هذا أنها ألفاظ تفصح عن مفاهيم تعددت وجهات النظر إليها، مثلما تعددت فيها الآراء؛

• **مصطلحات خضعت للشروط والظروف** المتصلة بعملية التفاعل مع الآخر من جهة، وتلك المتصلة بالحاجات التي أملتها التطورات الداخلية في المجتمعات العربية من جهة أخرى؛

• **مصطلحات تخضع باستمرار لإعادة النظر من جانب الثقافات التي صكتها أو تلك** التي قبستها عنها، وبالتالي فإنها مفتوحة باستمرار على قراءات وتفسيرات جديدة.

المصطلحات/المفاهيم

الأدب العام: General Literature وهو مصطلح يعود استخدامه إلى مطلع القرن التاسع عشر؛ ففي عام 1817 نشر نيبوميسين ليمرسييه .Lemercier N محاضراته تحت عنوان "دروس تحليلية في الأدب العام" واهتم فيها بالأجناس الأدبية وتطوراتها، كما حاول رسم لوحة شاملة أرخ فيها لأكثر الآداب العالمية شهرة. وفي عام 1833 نشر الإنكليزي جيمس مونتغمري كتابه "محاضرات حول الأدب العام والشعر" وقصد به ما يدعوه الناس اليوم بنظرية الأدب أو مبادئ النقد الأدبي. بعدها تتالت الأبحاث في مختلف الأقطار الأوربية الغربية فكانت بحوث هرمان هِتْنِرْ الألمانيH. Hettner وبول هازار الفرنسي P. Hazard وغيرهما[1].

والمصطلح أساساً يعني "فن الشعر" Poetics أو "الشعرية" أو نظرية الأدب الداخلية، أو الأعراف والنظم والقوانين والقواعد والمقاييس والمعايير والقيم المستمدة من داخل الأدب وتشكل في مجموعها نظاماً متكاملاً يحكم إنتاج الأدب واستهلاكه في جنس أدبي معين، أو مجموعة من الأجناس الأدبية في عدد من التقاليد الأدبية القومية.

ولكن الباحث المقارني الفرنسي المشهور بول فان تيغم Paul Van Tieghem استخدمه لاحقاً في معرض سعيه لتحديد أكثر دقة ووضوحاً لمصطلح الأدب المقارن. وميدان الأدب العام في رأيه هو:

"الظاهرات الأدبية التي تنتسب إلى عدة آداب معاً. ولهذه الدراسة فائدة جليلة، فنحن لا نستطيع أن نفهم هذه الآداب في تفصيلاتها اللامتناهية ومظاهرها القومية، إلا إذا درسناها في أول الأمر جملة واحدة، في خصائصها العالمية. إلا أن لهذه الدراسة، فضلاً عن ذلك، شأناً عظيماً في ذاتها، فهي توضح الروابط الروحية التي تجمع عدداً كبيراً من الناس من أبناء جيل واحد. فللأدب العام إذن فائدة مزدوجة، فهو أولاً يساعد المؤرخ الأدبي لأمة واحدة أن يفهم المؤلَّف أو الكتاب الذي يدرسه على نحو أكمل وأعمق، وذلك إذ يراه منغمساً في الجو الأدبي العالمي الذي ينتسب إليه، وهو ثانياً بحد ذاته من أعمق فروع الدراسات التاريخية وأبعدها أثراً"[2].

وهكذا نراه يضيف بعد حديثه عن الوقائع الأدبية التي يمكن أن يدرسها الأدب العام:

"وأياً كان الموضوع الذي يتناوله الأدب العام، فإن هذا الأدب العام يهدف إلى جمع ما فرقته المناهج الأخرى. وهو إذن أدنى إلى الدقة والتجريد في آن معاً. إنما يدع لمؤرخي الآداب القومية كل ما هو معزول (شخصياً كان أو محلياً)، وما ليس له صدأ (كذا، والصحيح صدىً) في خارج حدوده، وكل ما هو ذو طابع فردي خاص بالمؤلف أو بأدب واحد بعينه، مهما يكن ذا قيمة عظيمة في ذاته وكل ما هو من اختصاص التاريخ الأدبي البيوجرافي أو السيكولوجي. ويدع للأدب المقارن الذي يدرس

ما بين أدبين أو آداب من علاقات، يدع له الكلام المفصل في الاتصالات والتقليدات والمصادر والترجمات، ويدع له الحديث عن انتشار المؤلفات ودور الوسطاء بين شعبين. إلا أنه يستفيد دائماً من الوقائع التي تكتشفها أو توضحها تواريخ الآداب القومية، وينتفع بما ينتهي إليه الباحثون من تحليلات للأفكار والعواطف. وينتفع كذلك بالنتائج التي يخلص إليها الأدب المقارن: فإن هذه المبادلات الفكرية والفنية، وهذه التأثيرات، وهذه الاستجابات أو ردود الفعل، هي وقائع ذات قيمة كبيرة يخرجها من عزلتها، ويقربها من وقائع أخرى شبيهة بها، ويمزجها بعضها ببعض، ليخرج من ذلك كله بمركبات شاملة.

وواضح أن الأدب العام لا يريد أن يحل محل التاريخ الأدبي لمختلف الشعوب، ولا أن يحل محل الأدب المقارن. فإنما هو يمشي إلى جانبهما و وراءهما، يبني مركباً آخر مختلفاً في نموذجه عن مركباتهما، فبينما يقدم لنا تاريخ الأدب الواحد صورة لتطور الأدب في نطاق ضيق عرْضاً، ممتد طولاً أو زماناً، وتقدم لنا أمهات كتب الأدب المقارن صورة عن تأثير كاتب في كاتب أو أدب في أدب إبان فترة طويلة، فإن الأدب العام يتناول ظاهرات أوسع رقعة لكنها أقصر مدة"[3].

وربما كان من أهم ما يميز دراسات الأدب العام أنها لا تأبه بالحدود القومية للآداب ولا تقتصر على أدبين أو ثلاثة، بل تتناول في بحثها عن كل حركة أدبية كل الآداب التي تطورت فيها تلك الحركة وهي تُضرب صفحاً عن كل ما هو موضعي أو خاص بأدب قومي بعينه ولا تلقي بالاً إلا إلى ما له صدى في الآداب العالمية، وما له تأثير في توجيه التيارات الفكرية خارج حدود الأدب القومي. وهكذا فإنها لا تغني عن دراسات الأدب القومي ولا عن الدراسات الأدبية المقارنة. ذلك أنها تعتمد اتجاهاً خاصاً بها لا تحده الفواصل اللغوية والجنسية ولا ينظر إلا إلى شرح الحقائق والعوامل التي تتحكم في تطور الأفكار والحركات في الآداب باعتبارها نتاجاً إنسانياً عاماً.

ولم يكتف فان تيغم بدعوته إلى العناية بالأدب العام بل طبقها في كتابه المشهور **"التاريخ الأدبي لأوربا وأمريكا منذ عصور النهضة وحتى يومنا هذا" "Histoire Littéraire de l'Europe et l'Amérique de la Renaissance à nos jours"** الذي صدر عام 1941.

الأدب العالمي: World Literature

أو Weltliteratur وهو مصطلح كان غوته أول من استخدمه عام 1827 في معرض تعليقه على ترجمة مسرحيته تاسو إلى اللغة الفرنسية، وعنه انتقل إلى سائر اللغات[4]. وقد استخدمه ليشير به "إلى زمن تغدو فيه كل الآداب أدباً واحداً. إنه مثال توحيد كل الآداب في تركيب واحد عظيم، حيث تؤدي كل أمة دورها في اتساق عظيم. ولكن غوته نفسه رأى أن هذا مثال بعيد جداً، وأنه ليس ثمة من أمة ترغب في التخلي عن فرديتها"[5].

وقد يتبادر إلى ذهن المرء أن هذا المصطلح يعني ضمناً أن الأدب ينبغي أن يدرس على اتساع القارات الخمس كلها، وهو أمر ما كان ليخطر بحال من الأحوال على بال غوته عندما أطلقه. بل إنه نفسه قد خفف فيما بعد من حماسه له حيث بيّن أن الفكرة ليست "أن تفكر الأمم بطريقة واحدة، وإنما عليها أن تتعلم كيف تتفاهم فيما بينها، وإذا لم يكن يعنيها الحب المتبادل، فلا أقل من أن تتعلم كيف تتسامح"(6).

والواقع أن لهذا المصطلح **معنى ثالثاً هو "الذخيرة العظيمة للآثار الكلاسيكية من مثل آثار هوميروس، ودانتي، وسرفانتس، وشكسبير، وغوته، الذين امتدت شهرتهم إلى كل أنحاء العالم، ودامت زمناً معتبراً". أي أنه يغدو "مرادفاً للروائع "masterpiece"**، لمختارات من الأدب الذي له مسوغه النقدي والتربوي ولكنه لا يستطيع إلا بشق النفس، أن يرضي الباحث الذي لا يستطيع أن يقصر نفسه على القمم العظيمة إذا ما كان له أن يفهم السلاسل الجبلية كلها"(7).

وفضلاً عما تقدم فإن قبول حكم الزمن بخلود أثر أدبي ما يعني ضمناً أن الأدبين الحديث والمعاصر مستبعدان من دائرة الأدب العالمي. وكذلك فإنه كثيراً ما يبلغ كتاب معينون مرتبة سامية جداً في بلدهم دون أن ينالوا الحظوة الكافية خارج وطنهم. مهما كان الأمر فإن مصطلح "الأدب العالمي" يظل يستند في جوهره إلى اعتبارات تربوية تعليمية في سيرورته واستخدامه على نطاق واسع في العصر الحديث.

الأدب المقارن: Ccomparative Literature وهو مصطلح يعني فيما يعنيه:

- دراسة الأدب الشفوي وبخاصة "موضوعات الحكاية الشعبية وهجرتها، كيف ومتى دخلت الأدب الأرقى Higher "الفني"Artistic" (8)، والحقيقة أن هذا المفهوم أقرب ما يكون لمفهوم الأدب الشعبي. وعلى الرغم من أن دراسة الأدب الشفوي جزء لا يتجزأ من البحث الأدبي، وأن العديد من الأجناس والموضوعات ذات منشأ شعبي، وأن هناك مردودات شعبية كثيرة تطورت عن الأدب المكتوب، فإن هذا المفهوم للأدب المقارن ظل محصوراً بأوربة ولا سيما الشمالية منها، و"لم يتجاوزها إلى المناطق الأخرى في العالم وكان الإقبال عليه أشد في المرحلة الأولى لنشأة الأدب المقارن، وهو يؤلف اليوم رافداً جزئياً من روافد المفهوم المقارني"(9).

- دراسة الصلة بين أدبين أو أكثر وهو مفهوم ترسخ على يد أتباع المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن التي عنيت بـ"مسائل مثل السمعة والتوغل، التأثير والشهرة، لغوته في فرنسا وإنكلترا، ولأوسيان وكارلايل وشيلر في فرنسا. وقد طورت منهجية تمضي إلى أبعد من جمع المعلومات المتصلة بالمراجعات والترجمات والتأثيرات، لتدرس بتمعن الصورة، ومفهوم مؤلف معين في زمن معين، وعوامل متنوعة من عوامل النقل كالدوريات، والمترجمين،

والصالونات، والرحالة، والعامل'المتلقي' والجو الخاص والحالة الأدبية التي استُوْرِد فيها المؤلف الأجنبي. والحصيلة أن الكثير من الدلائل على الوحدة الوثيقة للآداب الأوربية قد روكمت، وأن معرفتنا 'بالتجارة الخارجية' 'للأدب قد نمت بما لا يقاس"(10). وقد واجه هذا المفهوم اعتراضات عدة من بينها صعوبة انبثاق نظام متميز من مثل هذه الدراسات، ومنها أن المقارنة بين الآداب، إذا كانت معزولة عن الاهتمام بمجمل الآداب القومية، تميل إلى أن تقصر نفسها على مشكلات خارجية للمصادر والتأثيرات والسمعة والشهرة، ومنها أنها لا تسمح للباحث بتحليل العمل الفني الفردي أو الحكم عليه، أو أن يتدبره بوصفه كلاً معقداً.

• **الأدب العالمي:** وهو مفهوم نشأ من محاولة تجنب الاعتراضات السابقة على المفهوم الفرنسي للأدب المقارن. وهذا المفهوم له تاريخه وظروفه الخاصة به التي حكمت مدلولاته وتطورها ولا يمكن بحال من الأحوال المطابقة بينه وبين مصطلح الأدب المقارن.

• **الأدب العام:** وهو أيضاً مفهوم خاص حاول أصحابه من خلال المطابقة بينه وبين مفهوم الأدب المقارن أن يتجاوزوا اعتراضات مناهضي المدرسة الفرنسية القديمة، إلا أنهم لم يوفقوا لأن للأدب العام مفهومه الخاص الذي يشير إلى فن الشعر Poetics أو ما يسمى بنظرية الأدب الداخلية، ولأنه قد يُفهَم من خلال التعريف الخاص له الذي جاء به بول فان تيغم في معرض تحديده لمفهوم الأدب المقارن وتمييزه عن الأدب العام.

• **"دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى:** وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقى) والفلسفة والتاريخ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع)، والعلوم والديانة، وغير ذلك. وباختصار هو مقارنة أدب معين بأدب آخر أو آداب أخرى، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني"" الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى"[11]، وهو المفهوم السائد اليوم لدى باحثي الأدب المقارن الأمريكيين ولا سيما رماك الذي بلور مفهومه على مدى عشر سنوات، واستطاع من خلاله أن يتجاوز الكثير مما يوجه إلى المفهوم الفرنسي الذي يغرق في إيمانه بالمركزية الأوربية، وفي استبعاده النقد الأدبي ومسائل الحكم والتقويم، وفي الانشغال بمسائل التأثر والتأثير.

مهما كان الأمر فإن المرء أميل إلى الاعتقاد بأن أي مفهوم للأدب ينبغي أن يعنى بدراسة العلاقات الخارجية لأدب قومي ما، سواء أكانت مع أدب آخر أم آداب أم مع مناطق أخرى من المعرفة الإنسانية، وبتفحص تأثير هذه الصلات في الأدب بوصفه فناً جميلاً، وذلك

بغرض الوصول إلى فهم أفضل لطبيعته ووظيفته في المجتمع الذي ينتج فيه.

ويبدو أن المجاز وحده يستطيع أن يوضح الفروق بين مصطلحات مثل الأدب القومي، والأدب المقارن، والأدب العالمي، والأدب العام بسبب التداخل النظري والعملي في استخدامها من جانب الباحثين في مختلف العصور والتقاليد الثقافية، أو في المناقشات النظرية التي تتصل ببلورة مفاهيمها وتحديد دلالاتها. وهكذا فإنه يمكن القول بأن الأدب القومي هو دراسة للأدب ضمن الحدود القومية لذلك الأدب؛ والأدب المقارن هو دراسة المناطق الحدودية لهذا الأدب القومي أو تخومه - حدوده النوعية التي تستوقف عين الناقد إذ يحلق في السماء الرحبة للآداب؛ والأدب العام هو دراسة لتضاريس الأرض التي يشكلها مجموع الآداب القومية دون أخذ الحدود القومية بعين الحسبان. وينبغي للدارس ألا ينسى في النهاية أن "الأدب واحد، كما أن الفن واحد والإنسانية واحدة؛ وفي هذا التصور يكمن مستقبل الدراسات الأدبية التاريخية"[12]، ومستقبل دراسة الأدب بوجه عام.

الهوامش

1ـ المصطلح، المستلهم أساساً من كتاب بول فان تيغم الأدب المقارن والذي سيرد ذكره لاحقاً، في كل من كتابي:
ريمون طحان، الأدب المقارن والأدب العام، الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة، (دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1983)؛ ود. الطاهر أحمد مكي، الأدب المقارن: أصوله وتطوره ومناهجه، (دار المعارف، القاهرة، 1987).

2 ـ انظر: فان تيغم، الأدب المقارن (دار الفكر العربي، القاهرة، د. ت)، ص ص 179 -180.

3 ـ انظر: المرجع السابق، ص ص 183 -184.

4 ـ انظر: د. الطاهر أحمد مكي، المرجع السابق، ص635.

5 ـ انظر:
René Wellek & Austin Warren, Theory of Literature, 3rd Edition, (Harcourt Brace and World, Inc., New York,1970), p. 48.

6 ـ نقلاً عن د. الطاهر أحمد مكي، المرجع السابق، ص636.

7 ـ انظر: Theory of Literature, p.49.

8 ـ انظر: Theory of Literature, P.47.

9 ـ انظر: د. حسام الخطيب، الأدب المقارن: الجزء الأول في النظرية والمنهج، (منشورات جامعة دمشق، دمشق، 1981 -1982) ص 9.

10 ـ انظر: Theory of Literature, PP. 47-8.

11 ـ انظر:
Henry H. Remak, "Comparative Literature: Its Definition and Function" , in Comparative Literature: Method and Perspectives, Revised Edition, Edited by Newton P. Stallknecht, and Horst Frenz (Southern Illinois University Press, Carbondale and Edwardsville, 1971), p. 1

12 ـ انظر: P.50. Theory of Literature,

اتحاد الكتاب العرب

الموقف الأدبي

Al-Mawqif Al-Adabi

مجلة أدبية شهرية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب في سورية

السنة الأربعون – العددان 471-472 تموز/يوليو - آب/أغسطس 2010

Monthly Literary Magazine Published by Arab Writers Union

40th Year - Issue No. 471 - 472 - July - August 2010

دراسة | الرؤى الحضارية في أدب باكثير

شعر | خضراء كالبحر

قصة | شرفة خلفية

مراجعات | رمزية القمر بين شاعرين

عدد مزدوج

اطلب كتاب الجيب مع العدد مجانا

WWW.AWU-DAM.ORG

لوحة الغلاف: الفنان غياث الأخرس